كتاب

ملحمة صغيرة عن السجن سيرةٌ سياسية لألبانيا

ظلام يخيّم خارج القضبان

في روايته التي صدرت نسختها العربية أخيراً عن «الآن ناشرون وموزّعون»، يروي الكاتب الألباني بسنيك مصطفاي حكاية عائلة ارتبط مصير أفرادها بالسِّجن، تماماً كما ارتبط مصير البانيا ـ لعقود ـ بالاحتلال، سردٌ عن الواجب والمسؤولية قبل كلّ شيء

سومر شحادة

السجن الذي يبدو مكاناً في رواية الألباني بسنيك مصطفاي، «ملحمة صغيرة عن السجن»، لا يلبث القارئ أن يكتشف أنّه أكثر عمقاً من كونه مجرّد مكان. الرواية الصادرة عن دار «الآن ناشرون وموزعون»، بترجمة أنجزها عن الألبانية إبراهيم فضل الله، تتناول التغيرات النفسيّة العميقة التي يسبّبها السجن للسجين وللسجان ولعائلاتهم.

تتوزع الحكاية على ثلاثة كتب، كلّ منها يروي جانباً من حياة السجن. تسبر الرواية عالم السجن المظلم، وفي تفكيك الظلمة يتفكّكُ إنسانٌ صنعه السجن، من غير أن يخرج إلى الحرية إنسان جديد مُعافى. لا تخلو الرواية من قسوة الواقعية، كذلك لا تخلو من آمالها. في الكتاب الأول يقصّ بارذيل هوتا حكاية والده عمر هوتا، وهي حكاية صاغها الجدّ أوسو هوتا بتناقضات الحضور والغياب، فالجدّ كان معتقلاً سياسياً خلال النظام الملكي.

وقد نشأ عمر على صورتين متناقضتين: واحدة تمتدّ فصولها حتى الثانية عشرة من عمره، وهي صورة صنعتها المخيّلة لذلك الأب الشجاع الذي يحمل بين ضلوعه قلب تنّين، الأب الذي تباهى الآخرون ببطولاته وشجاعته. فهو رجل يواجه دولة، بما في الفرد من صغر، وما في الدولة من عظمة. كذلك بقيت تلك الصورة عن الأب الشجاع المختلف تنمو في مخيلة الطفل، نوعاً من التعويض عن غياب الأب. فبمقارنةٍ مع باقي الأطفال الذين يعيشون في كنف آبائهم، كان لعمر أبٌ مختلف عن الآخرين. وهذا الاختلاف المؤكّد هو ما صنع العزاء للطفل الذي يعيش أشبه باليتيم. ما إن عرف عمر أنّ والده يعيش في السجن، ومن جرّاء احتدام مخيّلته، حتى عزم على أن يكون السجن مصيره أيضاً.

لكنّ حدثاً تلقائياً سيحطّم الطفل، عندما يزور مع والدته وهو في عمر الثانية عشرة والده أوسو هوتا في السجن، يجد رجلاً هزيلاً وضعيفاً، ذليلاً حتى أعماق روحه، يبكي أوسو ويحتضن طفلهُ عمر، الذي يتقزّز من والده الضعيف، تتفجّر دموعهُ ويهرب منه. ليكبر عمر وينبّه ابنَه بارذيل، أنّه لو دخل السجن فلن يزورهُ هناك.

مثلما تعمل المخيلة في حياة الطفل، كذلك تعمل في مخيّلة السجين، وهو في الكتاب الثاني الراوي بارذيل، وقد دخل سجن البانيا بعدما صارت جمهورية شعبية اشتراكية. أعاد بارذيل سيرة جدّه بعد ستين عاماً؛ يحرّكه خوف من لقاء زوجته ليندا بعد أحد عشر شهراً قضاها ينمّي تخيّلاته الجنسية عن لقاء محموم سيجمعهُ مع زوجته الشرعية. وقد أصاب تحذيران

أحدهما من زميله في السجن وهو يراه ذاهباً إلى اللقاء الموعود: «إيّها الفرحان. لا تفرح»، وآخر أطلقه السجّان: «احفظ المسار في دماغك». مخيّلته في مقتل.

وتحوّلت الخيالات الشاغرية للسجين إلى نوع من الهذيان الذي يستمر طوال ساعات اللقاء مع زوجته، إذ يتهيأ حضور الشرطي صاحب البزّة العسكرية معهما في الغرفة المخصّصة للقاءات داخل السجن، ما يمنعه من أن يكون طبيعياً معها، إلى جانب مخاوف كثيرة لم تتوقّف عن الإلحاح في دماغه، مثل خوفه على ليندا وانهيار ثقتهِ بنفسه، إضافة إلى الذبابة التي لا تتوقّف عن الطنين في أذنه، كلّ هذه الأمور، منعت اقتراب بارذيل من زوجتهِ. ويظهر خلال هذيانهِ وتداعيهِ المؤسف عمقُ العنف الذي تمارسهُ الدولة على خصومها السياسيّين، حداً يفكّر إزاءهُ بارذيل بأنّ غرفة اللقاءات تلك التي أجهزت على علاقة أبيهِ بجدهِ، وعلى علاقتهِ هو مع زوجتهِ، إنّما هي أعتى تجهيزات التعذيب في السجن. ذلك لأنّ السجين يدرك الأذى الذي طاولهُ، بتحطّم صورتهُ القديمة أمام أحبابهِ على نحو لا عودةَ عنه.

في الكتاب الثالث تدور الملحمة الصغيرة عن السجن في خارجه، ويتّضح للقارئ أنّ الرواية برمّتها روايةٌ عن الواجب والمسؤولية. إذ يقصّ الراوي حكاية ثلاثة نماذج تقدّم التصوّر ذاته حيال العالم.

بسنيك مصطفاي

ليس السجن جدراناً أربعة فحسب، بل تصوّرات وأفكار أيضاً

تفكيك تجربة السجن لا يعني خروج المرء منها معافىً

ذلك أنّه بعد خروج الإيطاليين وانتظار دخول الألمان إلى البانيا، تغيب أجهزة الدولة بانتظار المحتلّ. لكن يبقى كلّ من الصحافي والسجّان والعسكري المتقاعد أمينين لمسؤولياتهم. إنّ كلاً من الثلاثة يقدّم مثالاً على الإنسان الذي تسجنهُ مهامه، فالسجن ليس في القلعة فقط، بل في الأعمال التي يلتزمها الناس طوال حيواتهم.

تروي ليندا حكاية جدها حكمت هيدي، كي تفهم عقدة والدتها تجاه السّجون، بعد رفضها تزويج ابنتها ببارذيل، فقد أرادت تزويجها في مكان ليس فيه سجن سياسي. تصل ليندا إلى حكاية الجد؛ في الأيام التي أعقبت خروج الإيطاليين يهرب السّجناء من القلعة آخذين معهم السجّانين كي يُعاقبوا على سوء معاملتهم، لكنهم يتركون حكمت هيدي في سجنه لأنّه كان رحيماً معهم. وبانتظار القادة الجدد لألبانيا، يجمع السّجان هيدي الحجارة ويضعها في الزنازين. بذلك يتّهم بالجنون، ويُلجق العار بزوجته وبابنتهِ، والدة ليندا، بعد إشاعةٍ مفادها أنّه سيعتقلهما ليصنع سجناً حقيقياً بسجناء آدميين.

تدور أحاديث وروايات كثيرة عن لحظات حكمت هيدي الأخيرة في السجن قبل تسليمهِ أصولاً، وفي غياب عنف الدولة تتكشّف الرواية عن عنفٍ آخر، وهو عنف الناس. إذ يعرض السرد في القسم الأخير منه حكايةَ صحافي بدون جريدة ومحارب من غير جيش وسجّان من غير سجن، وفي هذه الأمثلة التي تعيش في فراغ العمل تسيلُ دعابةُ الناس وتتخفّى وراءها خشيتهم. في انتظار وصول الألمان، وأمام جموع الناس وعنفهم الذي يتأتّى من التصوّرات السيّئة عن أجهزة الدولة، تبقى تساؤلات المجنون عن انتهاء الديكتاتورية.

من عتمة السجن، المكان المُغلق الذي يشكّل مختبراً غنياً لكلّ كاتب، ينقل بسنيك مصطفاي تساؤلات السجين بين جدران القلعة، إلى سجونٍ شتّى، بدءاً من تصوّرات الشخصيات عن نفسها، وتخيّلاتها عن الآخر، إلى السجن الذي يصنعه الآخرون في المحيط الاجتماعي، وأشكال تحكمهم في مصير الفرد. أمّا العتمة القاسية في السجن، فتستمدّ ظلمتها من امتدادها إلى الأفكار، وتحطيمها للفرد من الداخل.

(كاتب من سورية)

بطاقة

شاعر وروائي ودبلوماسي ألباني من مواليد 1958. درس اللغة الفرنسية وآدابها في «جامعة تيرانا»، وعمل في الصحافة والترجمة قبل أن ينخرط، مطلع التسعينيات، في تجربة سياسية أنهاها باستقالته، عام 2007، من منصبه وزيراً لخارجية بلاده. بين أوّل مجموعة شعرية صدرت له عام 1978 بعنوان «موتيفات فرحة» و«ملحمة صغيرة عن السجن» (الغلاف)، وضع العديد من الأعمال في الشعر والسرد والمقالة السياسية، من آخرها «حُلم الدكتور» (2016).

إطلالة

محيط المحيط في عالم الكلمات

ما تقوله الرواية

ثمّة مئاتٌ من الدراسات والكتب والمقالات التي تناولت ظاهرة «الأخ الأكبر»، لكنّها لم تستطع إزاحة روايات جورج أورويل عن الموضوع من مكانتها

ممدوح عزام

يخالف تاريخ قراءة روايتَيْ جورج أورويل «1984» و«مزرعة الحيوانات» رأيَ ميلان كونديرا الذي قال فيه: «إن ما يقوله لنا أورويل كان يمكن أن يقال أيضاً (وربما بشكل أفضل) في مقال أو بحث نقدي». فعدا عن أنّ الروايتين قد تُرجمتا إلى معظم اللغات في العالم، وعدا عن أن أنهما لا تزالان مقروءتين، وتُستخدمان كرمزين للدلالة على الاستبداد وسرقة الثورات، فإن نموذج المستبدّ الذي ابتكره أورويل قد هيمن على العالم منذ الزمن الذي كتب فيه روايته. وهو ما يثبت قدرة النبوءة الروائية على أن تخبرنا بشكل المصير الذي ينتظرنا في حالة الاستسلام لأخ أكبر يراقب ويترصّد ويسيّر حياتنا ليلاً ونهاراً. كأنّ الحياة الواقعية بدأت تقلّد الرواية، أو تنقل النموذج إليها.

فضلاً عن هذا كلّه، فإن العالم قد شهد ـ منذ أن كتب أورويل روايته ـ عشرات الروايات عن النموذج الحاكم نفسه. ذلك أن الطغاة يقدّمون تعديلات لا حصر لها على سلوكهم، تعجز المقالة أو الدراسة عن تتبّعها مثلما تفعل الرواية.

الأمر الآخر الذي يخالف رأي كونديرا هو وجود المئات من الدراسات والكتب والمقالات التي ناقشت وحلّلت ظاهرة «الأخ الأكبر» أو ناقشت طبيعة الاستبداد والمستبدّين (حلّل إريك فروم شخصيتي هتلر وستالين في كتابه «تشريح التدميرية البشرية»، وكتبت حنا أرندت كتاباً مهمّاً عن «التوتاليتارية») ولكنّ كلّ تلك الكتب لم تستطع أن تُزيح الرواية عن مكانتها، أو تكون بديلاً «يمكن أن يقال بشكل أفضل» كما كتب كونديرا.

تسير عبارة كونديرا في الطريق المعاكس لما ترسّخ عبر تاريخ الرواية من أنّ ما تقوله هو المضمر، أو المستور، أو المسكوت عنه في كثير من مجالات الكتابة. لكنّ المعتاد أن تُعتبر السياسة في الأدب نوعاً من التدخّلات التي تسبّب بطء التلقّي، أو عدمه، أو حرمان الرواية من المتخيّل الأدبي. كان النقد يوجّه إلى أولئك الكتّاب الذين ينتمون إلى اتّجاه محدّد في الأدب، وكانت تهمة التقريرية، أو الخطابية هي التي تلاحق كتاباتهم. غير أن كونديرا نفسه يضع السياسة في قلب رواياته، ولا يوجد حدث روائي في معظم تلك الروايات دون أن تكون السياسة جزءاً من مصير الشخصيات، وهذا طبيعي قياساً إلى العوالم التي تعيش فيها تلك الشخصيات.

هل تستطيع المقالة أو الدراسة فعلاً أن تقول ما قالته الرواية بشكل أفضل؟ يخفي التاريخ كثيراً من الحقائق والتفاصيل، لا يأبه بتلك التي تتعلّق بالضمير والوجدان، أو بالحسد والغيرة، أو بالحقد والكراهية. وتتجاهل الدراسات السياسية طبائع الأفراد غالباً، بعضها لا يعول على الإرادة، بل يوكّل المصائر للقانون والحتميات. ولم تتمكّن الدراسات النفسية، على الرغم من عمقها وإحاطتها بالصفات المصاحبة للمستبدّ ونظامه (يمكن الإشارة هنا إلى كتاب مصطفى حجازي: «التخلف الاجتماعي») من أن تعوّض شيئاً ممّا يمكن للرواية أن تقدّمه. الرواية وحدها هي التي تستطيع أن «تقول ما لا يقوله التاريخ»، أو السياسة، أو النقد، أو الفلسفة: إنها محيط المحيط في عالم القول والكلمات.

(روائي من سورية)

هل تستطيع المقالة أو الدراسة أن تقول ما قالته الرواية بشكل أفضل؟

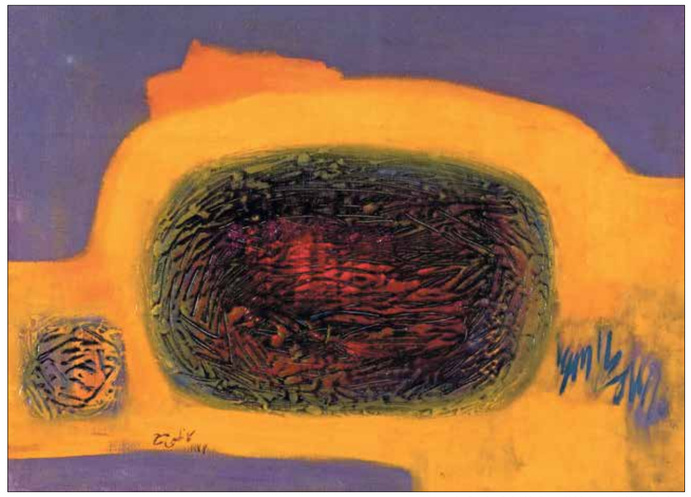
عمل بلا عنوان لـ حسين كاظمي (إيران)، زيت على قماش، 1973

قصة

لا أرى أحداً إلّا وأتذكّر عُمر

الظّلّ

وداد طه

هل هناك صدفة؟ أكانت صدفة أن ألتقي واحداً من أكثر الرّجال خوفاً من الحبّ، أنا الملهوفة إليه؟ أصل إلى نتيجة واحدة حين أفكّر بصفاء، إن كان من الممكن أن تلتقي في حياتك بخوفك فقد التقيته. لقد وضعت الحياة في طريقي ظلّي، عتمتي المخيفة، سوادي القاتل، غموضي الحارق، هشاشتي ولعناتي كلّها تجسّدت في عُمر. لا أقول هذا كي أجعل من هذه القصّة عملاً فنيّاً يستحقّ القراءة، ولا أقول ذلك الآن لأنّي أمسك بهذا السّلاح اللامع، وبطلقة واحدة يمكنني أن أنهي حياة امرأة عاشت حياة بائسة لأنّها لم تعرف نوعاً آخر للحبّ الذي تبحث عنه كلّ النّساء. أقول هذا ببساطة لأنّه إن كان في هذا العالم حقيقة، فهذه هي الحقيقة.

التقينا صدفة منذ ثلاث سنوات عند صديق مشترك، خطفني الشّبه بينه وبين لاعب كرة مضرب أحبّه كثيراً، ورحت أناديه باسمه طوال الجلسة التي لم يكن مخطّطاً لها أن تدوم أكثر من عشر دقائق كما زعم كريم وهو يناديني كي أنضمّ إليهم هو وصديق له عالم فلك. كان الموضوع جديداً ومغرياً، فلم أكن أتوقّع أن يكون مثل أولئك النّاس، قريبين منّا أو أنّه يمكننا التحدث إليهم. بدا ودوداً ومنفتحاً وصاحب نكتة، لم أشعر بالوقت، وحين غادر كريم، انتقلنا إلى مقهى آخر وبقينا حتّى المساء نتحدّث. تكلّمنا في كلّ شيء خلال الأيّام التي تلت ولساعات، أقصرها كان عشر ساعات، وعبر الهاتف إن لم نلتق. رأيتُ فيه أحلامي، كلّا أنا قبل أن ألتقيه لم أكن قد عرفتُ أنّ لي أحلاماً، أو معايير فيمن أحبّ، كنتُ فقط أنتقل من تجربة إلى أخرى كي أنسى ما قبلها، أو ألهو عن الحسرة التي تركتها فيّ. الآن فقط أدرك أنّي كنت الأمس الحياة من السّطح، لم أعرف أنّ تحت طبقات التجارب حقيقة علينا اكتشافها، وأنّ تلك التجارب كانت نتيجة خياراتي وأنّ تلك الخيارات سيّرتها مخاوفي. أحياناً حين كنّا نتصادم كنتُ ألومه، ولم أفهم أنّه يجعل كلّ شيء على السّطح، وأنّ ذلك الرّجل المتّزن المرح يرتدي قناع المعرفة واللامبالاة والسّعادة بحسب المناسبات والمواقف والأشخاص. كنتُ أرى في حبّه أن يمتلك أكثر من كلّ شيء، ماديّة أدّعيت أنّها ليست فيّ، ولم أفهم أنّه كان خائفاً.

شعرتُ بأنّ ثلاث سنوات كافية كي يحدّد موقفه، لم تكن المرّة الأولى التي نتجادل حول علاقتنا، فقد عرفنا طلعات ونزلات، وخيبات وآلاماً وانفصلنا أكثر من مرّة؛ كان يهرب من الارتباط وكنت أريده. رأيت في توجّهي نحو علاقتنا بدافعيّة وطواعية مساراً طبيعيّاً لقصّة حبّ يجب أن تؤول إلى الزّواج أو الارتباط، من دون أن أطرح على نفسي أيّ تساؤل أو تشكيك. وكان يهرب من أيّ حديث عنه من دون تردّد أو مراعاة لمشاعري. لم أكلّف نفسي عناء معرفة إن كان عُمر مناسباً لي أو لا، وإن كنتُ حقّاً أرغب في الزّواج بدافع الحبّ أو العادة والعرف.

كان يفزّ وأنا أقدم، هو يهرب من الماضي، وأنا أهرب من الآتي. لا هو يعي أنّ وجع الهرب أشدّ من وجع المواجهة، أنّ الوجع أحياناً هو الدّواء الذي نحتاجه. ولا أنا لم أعترف أنّ المواجهة هروب نحو الأمام. كم كنّا نشبه بعضنا، ولكن هل تلتقي المتشابهات؟ هل تؤدّي طرق المدينة كلّها بالضرورة إلى البيت؟

حين استأجرنا ذلك البيت في الجبل، أوهمتُ نفسي أنّ ذلك علامة على التزام عمر بعلاقتنا، ولا أدري كيف بنيت بعد خياناته العديدة تصوّراً أنّ ذلك المكان الذي أثثته بعناية، سيجعله يحبّ فكرة الزّواج ويتقبلها. يمكن لأنّه كان يرفض كلّ فكرة لها أربعة جدران، حتّى الجنس بتنا نمارسه في السّيّارة، يقول مشجّعاً: «ألا تريدين أجواءً رومانسيّة؟ هاك اصرخي براحتك، لا سقف هنا سوى السّماء». كان البيت معنى مقدّساً بالنّسبة إليّ، لم أتمكّن من أن أتخلّى عن رغبتي في أيّ بيت، أقول ونحن عائدان مساء مشيرة إلى البيوت التي تتناثر معلّقة فوق الجبل: «إنّها نجوم... ترى ماذا يفعل النّاس في البيوت في الليل؟». ألتفتُ إليه فأجد صدّه سكوتاً أو تقليباً في الرّاديو عن أيّ صوت آخر غير وخز كلماتي تربّبت في أسرة محافظة، تقيم العبادات، تعيد كلّ شيء إلى الدّين وتسمع فيها كلمة الله تتردّد حتّى في أثناء التهديد خلال المعارك الزّوجيّة. لم يكن السّفر مسموحاً به، لكني حصلت على بعض الحريّة ببلوغي الأربعين، وكانت رحلتي الأولى إلى أوروبا. زرتُ إيطاليا، كان عمر يسكن في إيطاليا قبل أن يعود إلى بيروت. لم يحدّثني كثيراً عنها، لكنّه كان حين ينفعل أو يريد إضحاكي يثرثر بالإيطاليّة فيبدو مهرّجاً، كان يحلو له أن أرى قدراته التمثيليّة. أخرج إلى السّاحات، أتمشّى طويلاً سارحة في لا شيء، كأنّ غيمة تسبح في رأسي، أشتري قهوة، أقصد إحدى الحدائق، أطيل الجلوس، لا أرى شيئاً أو أحداً إلّا وأتذكّر عمر.

في يوم كنتُ خارجة من البيت، أسير في الرّواق المشترك الذي يصل الشّقق ببعضها في ذلك المبنى الذي استأجرتُ فيه غرفة تطلّ على حديقة خلفيّة، أرى من النافذة العريضة عجوزاً تنشر ثيابها أو تلمّها في سلّتها الورديّة، أتذكّر جارتنا أمّ خليل، بثيابها البيضاء وشالها الرّقيق الأزرق، أبتسم كم يشبه البشر بعضهم بعضاً، يستوقفني باب مفتوح، لم ألاحظه من قبل، يدفعني شيء ما، أطلّ فأجد رجلاً خمسينيّاً، عاري الصّدر، يرتدي شورتاً كاكيّاً، أستميحه عذراً، فيبتسم مشجّعاً على الحديث، أسأله إن كان يجيد الإنكليزيّة، فيشير بيده أنْ قليلاً، ألاحظ أنّه يضع كحلاً في عينيه، ولكنّي أربط ذلك بما أعرفه من عادات الأجانب الغريبة بالنّسبة إلينا، أعرف أنّه مخرج، وبعد أن نتحدّث بلغة نصفها إشارات وإنكليزيّة مشوّهة، أترك له رقمي الإيطاليّ.

(كاتبة فلسطينية مقيمة في لبنان)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

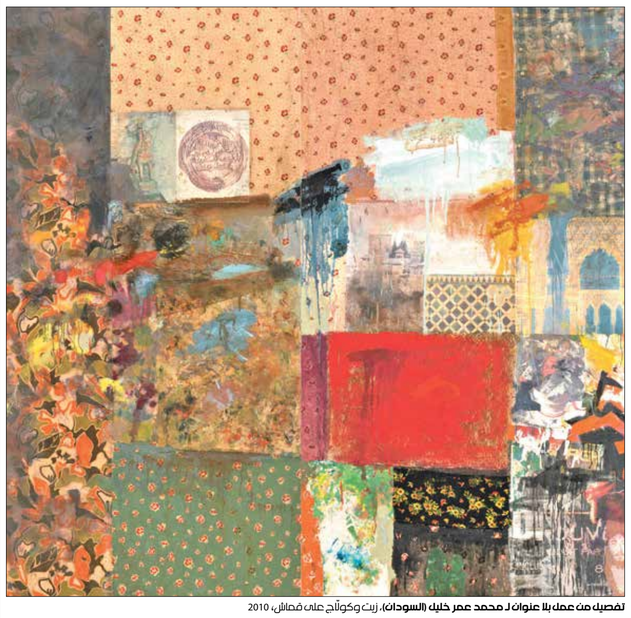
تفصيل من عمل بلا عنوان لـ محمد عمر خليل (السودان)، زيت وكولّاج على قماش، 2010

فعاليات

يُعرض عند السادسة والنصف من مساء الثلاثاء المقبل في «مؤسسة عبد الحميد شومان» بعمّان الفيلم الكوري الجنوبي **عشب** (2007) للمخرج **إن مو هيو**. يروي العمل قصة فتاة في العشرين من عمرها تعاني من بطء في التعلّم، ما يحول دون انجذاب الرجال إليها ويسبّب لها العديد من المشاكل العائلية والاجتماعية.

حتى الثلاثين من كانون الثاني/ يناير المقبل، يتواصل في متحف «مجموعة والاس» بلندن معرض استعادي لـ **فرانس هالز** تحت عنوان **بورتريه الرجال** والذي افتُتح نهاية الشهر الماضي . يضيء المعرض تجربة الفنان التشكيلي الهولندي (1589 – 1666) الذي استطاع أن يطوّر مع فنانين هولنديين آخرين تقنيات رسم البورتريه، إلى جانب رسمه لبورتريهات جماعية لم تكن شائعة من قبل.

عصية على النسيان عنوان الحوار الذي يقيمه «المتحف الفلسطيني» في بيرزيت مع الباحث **سلمان أبو ستة**، عند الثانية عشرة من ظهر الأحد، الرابع والعشرين من الشهر الجاري. يتناول الحوار مشروعه الذي وثّق فيه حوالي آلاف البلدات في فلسطين في مجموعات أطالس منذ القرن التاسع عشر وحتى اليوم.

يُقام عند السابعة والنصف من مساء اليوم، على خشبة **مسرح الزمالك** في القاهرة، حفل للفنان المصري **محمود العسيلي**. قدّم المغنّي الذي تعلّم العزف على آلات نفخية وإيقاعية العديد من الألبومات تضمّنت أغاني من تأليفه وتلحينه منها «إيه على فين»، و«ومين أنا»، و«دنيا جديدة»، و«طول ما إنتي جنبي».